العنوان: إلقاء الضوء على الدور المزعوم للقراء في معركة صفين
المصدر: مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية
الناشر: جامعة الملك عبدالعزيز - كلية الآداب والعلوم الإنسانية
المؤلف الرئيسي: الهلابي، عبدالعزيز بن صالح
المجلد/العدد: مج 4
محكمة: نعم
التاريخ الميلادي: 1984
الصفحات: 13 - 44
رقم MD: 107193
نوع المحتوى: بحوث ومقالات
اللغة: Arabic
قواعد المعلومات: HumanIndex, AraBase
مواضيع: معاوية بن أبي سفيان بن صخر بن حرب ، ت 60 هـ، معركة صفين، القراء، التحكيم، علي بن أبي طالب بن عبدالمطلب ، ت 40هـ، الخوارج، رفع المصاحف، تزوير التاريخ، المصادر التاريخية، الاستشراق و المستشرقون، أبو موسى الأشعري، مصاحف الأمصار، معركة الجمل، أهل العراق، التاريخ الإسلامي
رابط: http://search.mandumah.com/Record/107193

إلقاء الضوء على الدور المزعوم للقرّاء
فى معركة صفين

الدكتور : عبد العزيز صالح الهلابي *

ملخص البحث :

تروي معظم مصادر التأريخ الإسلامي المبكرة أن القرّاء فى معسكر الخليفة – رضى الله عنه – فى معركة صفين (سنة ٣٧هـ) أجبروا – مع الأشعث بن قيس – الخليفة علي ، على قبول التحكيم ؛ عند مارفع أهل الشام المصاحف ، ثم أنهم خورجوا عليه – بعد ذلك – احتجاجاً على قبوله التحكيم ؛ فسموا « الخوارج » .

وقد بنى معظم الباحثين المعاصرين ، من عرب ومستشرقين ، دراساتهم لهذه الحرب الأهلية على هذه الروايات .

وقد تتّبع البحث تطوّر « مفهوم القرّاء » منذ عهد الرسول – ﷺ – حتى حادثة « التحكيم » وناقش روايات المؤرخين المبكرين ، وعرض آراء الدارسين لمحدثين ، وقد توصل البحث إلى أن تلك الروايات كانت مختلفة ، ومن ثم فإن الدور المنسوب إلى القرّاء – فى الحرب والتحكيم – كان غير صحيح .

* – أستاذ مساعد – جامعة الملك سعود – الرياض كلية الآداب .

لقد تعرضّ التاريخ الإسلامي للكثير من المبالغات والافتراءات ، في عصوره المختلفة ، وأغلب ذلك حدث في فترة القرن الهجري الأول ، في الفترة ، التي سبقت ، أو صاحبت بداية التدوين التاريخي . ويعود ذلك لأسباب كثيرة ، منها ما يعود إلى الانتماء الطائفي ، أو القبلي ، ومنها ما يعود إلى تعصّب لمدينة ، أو إقليم ، ومنها مايعود إلى النسيان ، لعدم توفّر التدوين . وليس التاريخ الإسلامي بدعاً في ذلك ؛ فمعظم تواريخ الأمم تعرضت لمثله ، وأكثر منه ؛ لوجود الدوافع والأسباب نفسها .

وما نهدف إليه ، في بحثنا هذا ، هو دراسة الكتابات التاريخية عن « القّراء » في مصادرنا التاريخية المبكّرة ، والمقصود بـ « القراء » هنا هم الذين تذكر أكثر مصادرنا التاريخية أنهم ساهموا في تأليب الناس ، في الكوفة ، على الخليفة عثمان ، والذين اشتركوا في معركة « صفين » وصاروا خوارج – فيما بعد – مؤمّلين أن نصل إلى نتيجة ؛ تساعد في تصحيح بعض المفاهيم الشائعة ، والمبنية على بعض الروايات التاريخية غير الموثوقة .

وبما أن هذه المرحلة غاية في الحساسية ، والحديث عنها يلامس عواطف كثير من المسلمين ؛ فالباحث يعلن أنه لايقصد ، في بحثه ، الانتصار لفئة ، أو الغضّ من أخرى ؛ فليس هذا من شأنه .

وبما أن مفهوم « القّراء » ذاته تعرّض لتفسيرات مختلفة – سوف نذكرها لاحقاً – فيجمل بنا أن نتعرّض لمفهوم « القرّاء » منذ بدء نزول القرآن على الرسول الكريم – ﷺ – حتى الفترة التاريخية ؛ موضوع الدراسة .

لقد بدأت رسالة النبي الكريم – ﷺ – بنزول القرآن عليه ، وكان أول ما أنزل عليه : (اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان مالم يعلم .)[1] ثم توالى نزول الوحي عليه ، وأخذ النبي – ﷺ – يقرىء أتباعه القرآن ، وبعد هجرته إلى المدينة ، وانتصار دعوته ، أخذ يرسل أصحابه إلى البلدان والقبائل ؛ ليدعوا الناس إلى الإسلام ، ويقرئوهم القرآن . وطبيعي أن كل داخل في الدين الجديد كان عليه أن يقرأ كتاب الله ، على أن المسلمين لم تكن حظوظهم واحدة في قراءة القرآن ؛ فبعضهم كان أقرأ من بعض ، وذلك يعود إلى كثرة الملازمة للرسول – ﷺ – وإلى قضاء أكبر وقت في قراءة القرآن ، وتدبّر معانيه .

وأول مرّة نصادف فيها مفهوم « القرّاء » على أنه صفة مميزة لقوم بعينهم ، كان نهاية السنة الثالثة ، من الهجرة ، في الحديث عن غزوة بئر معونة .

يقول الواقدي « ... وكان من الأنصار سبعون رجلاً شببة ، يسمون القرّاء ، كانوا إذا كان وجه الصبح استعذبوا من الماء ، وحطبوا من الحطب ؛ فجاؤا به إلى حجر رسول الله – ﷺ ... فخرجوا ؛ فأصيبوا في بئر معونة ... »[2] . ثم أرسل النبي – ﷺ – سبعة من القراء ؛ ليقرئوا قبيلتي عضل

والقارة ، فغدر بهم ، وقتلوا[٣] . وبعد ذلك لانجد ذكرا للقرّاء على أنهم مجموعة متميّزة ، عدا بعض الشعارات ، التي كان يتنادى بها المسلمون في معركة الرّدّة باليمامة ، وهي « يا أصحاب سورة البقرة . يا أهل القرآن زينوا القرآن بالفعال »[٤] . وقد أشار عمر بن الخطاب على أبي بكر بجمع القرآن ، بعد هذه المعركة ، وقال له : « إن القتل كثر ، واستحر بقرّاء القرآن يوم اليمامة »[٥] .

وقدكان إقراء القرآن مستمراً في كل الأمصار الإسلامية ، ولكل المسلمين ، ونشأ من تعدّد المقرئين ، واختلاف لهجاتهم ، الاختلاف في القراءة بين مصر وآخر ، بل إنه – في الحقيقة – وجد اختلاف في القراءة في المصر الواحد ، فالسجستاني يروي قصة عن الاختلاف في القراءة ، في الكوفة ، عن يزيد بن معاوية النخعي ، قال : « إني لفي المسجد ، زمن الوليد بن عقبة ، في حلقة فيها حذيفة ، قال ... إذ هتف هاتف : من كان يقرأ على قراءة أبي موسى ، فليأت الزاوية ، التي عند أبواب كندة ، ومن كان يقرأ على قراءة عبد الله بن مسعود ، فليأت هذه الزاوية ، التي عند دار عبدالله ، واختلفا في آية من سورة البقرة ... »[٦] .

وكاد هذا الاختلاف أن يحدث فتنة ، إذ إن أهل كل مصر يعتقدون أن مصحف مقرئهم ، الذي أخذوا عنه مصاحفهم وقراءتهم هو الصحيح . وقد ظهر هذا الاختلاف واضحاً في غزوة الباب ، سنة ثلاثين من الهجرة ، حيث اجتمع في هذه الغزوة أجناد من الكوفة والبصرة وحمص ودمشق ، وعندما رأى الصحابي حذيفة بن اليمان حدّة الخلاف بينهم ، وخطورة ما ينبيء عنه هذا الأمر ، أسرع إلى الخليفة عثمان ، وأشار عليه أن يجمع المسلمين على مصحف واحد ، ترسل نسخ منه إلى الأمصار ، وتسحب المصاحف الأخرى من التداول[٧] . واستصوب الخليفة عثمان والصحابة هذا الرأي ، ونفذه ، وأرسل نسخاً من المصحف الرسمي الموحّد إلى الأمصار ، فأخذت به ، إلا أنه لقي معارضة من عبد الله بن مسعود ، مقريء أهل الكوفة ، وتبعه على ذلك أصحابه من أهل الكوفة ، حيث قال لهم : يا أهل العراق ، غلّوا المصاحف وألقوا بها الله ، فإنه (من يغلل يأت بما غل يوم القيامة)[٨] فألقوا الله بالمصاحف[٩] .

أما موقف أبي موسى الأشعري ، الذي أقرأ في كل من البصرة[١٠] والكوفة[١١] فلم يكن معارضاً للنسخة الرسمية الموحّدة ، لكنه لم يقبلها كذلك قبولاً تاماً ، حيث قال : « ما وجدتم في مصحفي هذا من زيادة فلا تنقصوها ، وما وجدتم من نقصان فاكتبوه فيه[١٢] » .

ويبدو أن هذه القضية أخذت بعداً سياسياً أكثر مما تستحق ، وقد يعود ذلك إلى الخلاف ، الذي نشب بين عبد الله بن مسعود ، الذي كان على بيت المال في الكوفة ، وبين والي الكوفة لعثمان الوليد بن عقبة . وقد نجم عن ذلك الخلاف أن أصبح بقاء ابن مسعود في الكوفة أمراً غير مرغوب فيه ، من قبل الخليفة عثمان ، فاستدعاه إلى المدينة ، وفرض عليه البقاء فيها ، ويقال إنه حرمه عطاءه أيضاً[١٣] .

وهذه المرحلة هي بداية نشوء المعارضة للخليفة عثمان وولاته في الكوفة ، على أنه تجب الإشارة بأن الخليفة وولاته لم يتخذوا موقفاً صارماً بشأن سحب المصاحف من أهل الكوفة ؛ إذ رأوا أن يعالجوا الأمر بالرفق والروية . وقد ظلّ مصحف ابن مسعود معمولاً به في خلافة معاوية ؛ حيث يروي البلاذري بإسناده : « أخبرني من صلّى مع زياد ؛ فقرأ بالمعوذتين قال : وما قرأهما أحد من أمراء الكوفة قبله »[١٤] حيث إن المعوذتين لم تكونا في مصحف ابن مسعود .

والطريف في الأمر أننا لا نقع ، في مصادرنا ، على كلمة « قرّاء » من خلال الحديث عن الاختلاف في القراءات وجمع القرآن ، وكلّ ما تذكره هو « أهل الكوفة » ، « أهل البصرة » ، « أهل دمشق » ، « أهل حمص » ، « أصحاب عبد الله » .

وتورد مصادرنا لأول مرّة « القرّاء » على أنهم مجموعة متميّزة ، ذات مضمون سياسي ، في سنة ثلاث وثلاثين من الهجرة ؛ وذلك في ولاية سعيد بن العاص على الكوفة .

فالإخباري الكوفي سيف بن عمر يروي بأن سعيد بن العاص ، عندما قدم « الكوفة » ، أرسل إلى وجوه الناس ، من أهل الأيام ، والقادسية ؛ فقال : أنتم وجوه من وراءكم ، والوجه ينبىء عن الجسد ، فأبلغونا حاجة ذي الحاجة ، وخلة ذي الخلة ، وأدخل معهم من يحتمل من اللواحق والروادف ، وخلص بالقرّاء والمتسمين في سمره ؛ فكأنما كانت الكوفة يبساً شملته نار ؛ فانقطع إلى ذلك الضرب ضربهم ، وفشت القالة والإذاعة[١٥] .

أما عمر بن شبّة والبلاذري فيوردان هذا الخبر رواية عن أبي مخنف الكوفي . يقول البلاذري : « لما عزل عثمان – رضي الله عنه – الوليد بن عقبة عن الكوفة ولاها سعيد بن العاص ، وأمره بمداراة أهلها ؛ فكان يجالس قراءها ، ووجوه أهلها ، ويسامرهم ...[١٦] ثم يروي الخلاف الذي نشب بين سعيد وبين هؤلاء في مجلس سعيد ، حول السواد ، وضربهم لصاحب شرطته ، وكتب بذلك إلى عثمان ؛ يقول : « إني لا أملك من الكوفة مع الأشتر وأصحابه ، الذين يدعون القرّاء – وهم السفهاء – شيئاً ؛ فكتب إليه أن سيّرهم إلى الشام ...[١٧] » .

ويضيف ابن شبّة ، بعد ذكر أسماء المسيرين رواية عن المدائن ، وتنتهي بيونس بن أبي إسحاق الهمداني الكوفي ، ونصها « قال : كتب ناس من وجوه أهل الكوفة ونسّاكهم ، منهم ... « إلى عثمان ... »[١٨] .

أما البلاذري فيقول حول الموضوع نفسه « كتب جماعة من القرّاء إلى عثمان منهم ... »[١٩] .

أما الواقدي فينقل روايتين حول هذه الحادثة ليس في أي منهما ذكر للقرّاء ؛ أولاهما عن الشعبي الكوفي ، منها : « قال : قدم سعيد بن العاص الكوفة ؛ فجعل يختار وجوه الناس ، يدخلون عليه ، ويسمرون عنده ، وأنه سمر عنده ليلة وجوه أهل الكوفة منهم ....[٢٠] » .

والثانية عن أبي إسحاق الهمداني الكوفي أيضاً « قال : اجتمع نفر في الكوفة يطعنون على عثمان من أشراف أهل العراق .. (٢١) ».

ومن الاقتباسات ، التي عرضناها – آنفاً – والتي يرد فيها ذكر « القرّاء » لأول مرة في مضمون سياسي نلاحظ أنها كلّها كوفية ، وأن أبا مخنف ، وسيف بن عمر ، يشيران إلى « القرّاء » بطريقة غامضة ؛ فلا نميّز بين القرّاء وغيرهم ، بينما الشعبي وأبو إسحاق الهمداني لايذكران شيئاً عن القرّاء ، في هذه الحادثة على الإطلاق .

وسوف نضع – فيما يلي – أسماء المسيرين إلى الشام ، وأسماء الذين كتبوا إلى عثمان ؛ يطلبون رد المسيرين ؛ حيث وصفتهم بعض الروايات – كما أشرنا – بأنهم قرّاء ؛ وذلك لمعرفة إذا كان بينهم علاقة وبين القرّاء ، الذين ذكرتهم المصادر ، في أحداث معركة « صفين » .

أسماء المسيرين إلى الشام

البلاذري – أبو مخنف(٢٢) « القرّاء والوجوه »	ابن شبّة – أبو مخنف(٢٣) « القرّاء »	الواقدي – أبو إسحاق الهمداني(٢٤) « أشراف أهل العراق »
١ – الأشتر النخعي (مالك بن الحارثي)	الأشتر ...	الأشتر ...
٢ – كميل بن زياد النخعي	كميل ...	كميل ...
٣ – عمر بن زرارة النخعي	عمرو ...	عمرو ...
٤ – يزيد بن المكفف النخعي	يزيد ...	عمرو بن الحق الخزاعي ...
٥ – ثابت بن قيس النخعي		ثابت ...
٦ – جندب بن زهير الأزدي	جندب ...	جندب ...
٧ – زيد بن زهير الأزدي	زيد ...	زيد ...
٨ – صعصعة بن صوجان العبدي	صعصعة ...	صعصعة ...
٩ – الحارث بن عبد الله الأعور الهمداني	حرقوص بن زهير السعدي	جندب بن كعب الأزدي
١٠ – أصغر بن قيس الحارثي	شريخ بن أوفى العبسي	
١١ – عائدة بن حملة الطهوي من بني تميم		

أسماء الذين كتبوا لعثمان يطلبون ردّ المسيرين

البــلاذري - أبــو مخنــف[٢٥] « القـــــرّاء »	ابن شبّة - يونس بن أبي إسحاق الهمداني[٢٦] « وجوه أهل الكوفة ونسّاكها »
١ - معقل بن قيس الرياحي	معقل بن قيس الرياحي
٢ - عبد الله بن الطفيل العامري	عبد لله بن الطفيل العامري
٣ - مـالك بن حبيب التميمي	مـالك بن حبيب
٤ - عمرو بن الحمق الخزاعي	عمرو بن الحمق الخزاعي
٥ - سليمان بن صرد الخزاعي	سليمان بن صرد الخزاعي
٦ - كعب بن عبدة النهدي	كعب بن عبدة النهدي
٧ - يزيد بن قيس الأرحبي	يزيد بن قيس الأرحبي
٨ - زيد بن حصين الطائي	زيد بن حصين الطائي
٩ - زياد بن النضر الحارثي	زياد بن خصفة التميمي
١٠- حجر بن عدي الكندي	
١١- مسلمة بن عبده القـاري	
١٢- المسيب بن نجبة الفزري	

ويحفظ لنا صاحب « الأغاني » خبراً يرويه عن الهيثم بن عدي الطائي ، فيه ذكر للقرّاء : « ... أخبرني من أرسله القرّاء الأشراف – قال الهيثم : فقلت لابن عياش : من القرّاء الأشراف ؟ قال : سليمان بن صرد الخزاعي ، والمسيب بن نجية الفزاري ، وخالد بن عرفطة الزهري ، ومسروق بن الأجدع الهمداني ، وهاني ء بن عروة المرادي – إلى لبيد بن ربيعة ؛ وهو في المسجد فقلت : ياأبا عقيل ، إخوانك يقرئونك السلام ، ويقولون : أي العرب أشعر ؟ ..»[٢٧] بل إن الشاعر لبيد بن ربيعة العامري ؛ وصف بأنه من « القرّاء »[٢٨] .

ولقد قمنا بتتبّع أسماء هؤلاء ، الذين وصفتهم بعض الروايات – التي سقناها – بالقرّاء في أخبار الفتوحات والأحداث الإسلامية ، في عهدي الخليفتين عمر وعثمان ، فلم نقع على وصف لهم أو لغيرهم ؛ سواء كانوا أفرادا أم جماعات بالقاريء والقرّاء . ولم نجد كذلك ذكراً للقرّاء في حدثي الفتنة ، اللذين سبقا معركة « صفين » ؛ وهما حصار الخليفة ، وقتله ، وموقعة « الجمل » بالبصرة . ويجب أن نؤكد – أيضاً – أن ممن اشترك من هؤلاء في معركة « صفين » لم يشتركوا بصفتهم قرّاء ، بل بصفتهم رؤساء قبائلهم ووجوهها ، ولم يكن لهم أية صلة بالقرّاء ، الذين تذكر المصادر أنه كان لهم موقف متميّز من التحكيم ، على أن شريح بن أوفى العبسي ، وحرقوص بن زهير السعدي التميمي – اللذين تفرّد بذكرهما ابن شبّة – قد كانا من الخوارج ، وقتلا في معركة النهروان[٢٩] ولم يرد لهما ذكر في أخبار المعركة ، ولا في التحكيم ، لا بصفتهم « قرّاء » ولا غيرها . وحرقوص بن زهير السعدي لم يكن أصلا من أهل الكوفة ؛ بل كان من أهل البصرة. وقد أرسله عمر بن الخطاب مددا لعامله على البصرة عتبة بن غزوان ، وجعل لحرقوص الأمر على ما غلب عليه ؛ فافتتح سوق الأهواز ، وأقام بها ، واتسقت له سوق الأهواز إلى تستر[٣٠] .

أما يزيد بن حصين الطائي فهو الشخص الوحيد ، الذي ذكر في أخبار معركة « صفين » بأنه مع القرّاء الذين أجبروا الخليفة على قبول التحكيم[٣١] . وقد خرج عليه – بعد ذلك – وقتل في معركة « النهروان »[٣٢] .

ومن الغريب أنه – بعد تلك الإشارة الغامضة للقراء سنة ٣٢هـ – لانجد لهم ذكرا – بعد ذلك – حتى نهاية سنة ٣٦هـ ؛ عندما أعلن الخليفة عليّ عزمه على قتال معاوية وأهل الشام ، بعد أن فشلت مساعيه السلمية في تلافي هذا القتال ؛ إذ تروى بعض مصادرنا موقف أصحاب عبد الله بن مسعود ، وشكهم في قتال المسلمين معاوية وأهل الشام ، وتجب الملاحظة – هنا – بأنهم لم يوصفوا بالقرّاء ، وإنما « بأصحاب عبد الله » وقد انقسموا إلى فئتين ؛ فئة طلبت من الخليفة أن يوليهم حرب بعض الثغور ، وقالت الفئة الأخرى بأنهم سوف يخرجون الى ميدان المجابهة ؛ بصفتهم محايدين ؛ للنظر في أي الفريقين على الحق ، فوافق الخليفة علي على ذلك[٣٣] .

ويبدو أن كلتا الفئتين لم يتجاوز عددهما ثمانمائة رجل ، ومن خلال تتبّع السرد التاريخي لمعركة

« صفين » يظهر أن تلك الفئة المحايدة ظلت على حيادها ، وربما أنها انسحبت من ميدان المجابهة ؛ حيث إننا لانقع لهم على ذكر في أثناء القتال أو بعده ، على الأقل أسماء رؤسائهم ، الذين ذكرتهم المصادر .

ولانلبث أن تتملكنا الدهشة ؛ حيث تفاجئنا مصادرنا بخبر غاية في الغرابة ؛ ونصه : « لما صار علي ابن أبي طالب – عليه السلام – بصفين خرج قرّاء أهل الشام ، وقرّاء أهل العراق ؛ فعسكروا بناحية صفين في ثلاثين ألفاً ، وعسكر علي على الماء ، وعسكر معاوية فوق ذلك . ومشت القرّاء فيما بينهم ؛ فيهم عبيدة السلماني ، وعلقمة بن قيس النخعي ، وعبد الله بن عتبة ، وعامر بن عبد قيس ... وغير هؤلاء من القرّاء ... »(٣٤) .

ومما لاشك فيه أنه لوكان هناك وجود حقيقي لمثل هذا العدد يسعى لإصلاح ذات البين ، فإن لم ينجحوا في ذلك قاتلوا « الفئة الباغية » لأمكنهم حسم المعركة في أقل من يوم واحد ؛ وليس أدلّ على زيف هذا الخبر من أن المصادر ، التي أوردته لم تعقب عليه ؛ فلم تخبرنا عن مصير هذه الأعداد الهائلة من القرّاء ، هل ظلوا على حيادهم أو أنهم انضموا إلى أحد الفريقين ، أو غير هذا وذاك .

أما أسماء الذين ذكروا في الخبر فكلّهم من « أصحاب عبد الله بن مسعود » عدا عامر بن عبد القيس ؛ فهو ناسك ، كان مقيما في البصرة ، ونفاه الخليفة عثمان إلى الشام ؛ لإنكاره عليه بعض الأمور ، وأقام بها(٣٥) . وأما علقمة بن قيس النخعي فهو من أقرب تلاميذ ابن مسعود إلى نفسه ، وأكثرهم أخذا عنه ، وقد اشترك في المعركة مع قومه النخع ، وكانوا من أشدّ الناس تأليبا على الخليفة عثمان ، وقد قتل أخوه في المعركة(٣٦) أما عبيدة السلماني . وعبد الله بن عتبة ، فهما من رؤساء الفئة من أصحاب ابن مسعود ، والتي طلبت من الخليفة على أن تكون على الحياد ، في ميدان المجابهة .

والذي أميل إليه هو أن هذه الثلاثين ألفا من القرّاء ليست إلا تلك الفئة المحايدة ، من أصحاب ابن مسعود ، التي كانت حوالي أربعمائةرجل ؛ فجاء بعض الرواة المتأخرين ؛ فرفعهم إلى هذا العدد ؛ انسجاما مع ميل الرواة ؛ بصفة عامة ، إلى تضخيم الأعداد ، والمبالغة فيها ، وميل الرواة الكوفيين ،بصفة خاصة ، إلى المبالغة في أخبار معركة « صفين » .

ثم تعود مصادرنا لذكر القرّاء ، لكن بوصفهم مشاركين في القتال ، لا محايدين ؛ فعلى حين أنها أعطت أخبارا مفصلة عن تعبئة كل من علي ومعاوية لجيوشهما ، وكانت تعبئة الجيشين تقوم على أساس قبلي ، فكل رئيس قبيلة أعطى راية قبيلته ثم وزّع كل جيش إلى ميمنة ، وقلب ، وميسرة ، وخيل ، ورجالة(٣٧) ، تذكر أن علياً « بعث على خيل أهل الكوفة الأشتر النخعي ، وعلى خيل أهل البصرة سهل ابن حنيف ، وعلى رجالة أهل الكوفة عمار بن ياسر ، وعلى رجالة أهل البصرة قيس بن سعد ، وهاشم بن عتبة ، ومعه الراية ، ومسعر بن فدكي التميمي ، على قرّاء أهل البصرة ، وصار قرّاء أهل الكوفة إلى عبد الله بن بديل ، وعمّار بن ياسر »(٣٨) .

وتذكر في أخبار يوم آخر ، من أيام القتال ، أن عليّا جعل « على ميمنته عبد الله بن بديل ، وعلى

ميسرته عبدالله بن عباس . وقرّاء أهل العراق ، مع ثلاثة نفر : مع عمار بن ياسر ، ومع قيس بن سعد ، ومع عبد الله بن بديل . والناس على راياتهم ومراكزهم . وعلي فى القلب ، فى أهل المدينة ، بين أهل الكوفة وأهل البصرة ...»(٣٩) .

ولنا أن نطرح بعض التساؤلات حول هذين النصين ؛ إذ إنه فى التعبئة الرئيسية المفصلة للجيشين لم يكن فيهما أي ذكر للقرّاء ؛ وإنما للقبائل . فمن أين ظهر القرّاء فى ساحة القتال ؟ ثم نلاحظ على النصّ الأول أن عمار بن ياسر مرة على رجالة أهل الكوفة . وأخرى على قرّاء أهل الكوفة . فهل هما شيء واحد ؟ كذلك يرد ذكر قرّاء أهل البصرة لأول مرّة . وآخر مرة . فأين ذهبوا ؟ هل أدمجوا فى قرّاء الكوفة ؛ إذا كان للقرّاء أصلاً وجود حقيقي ؟ .

وفى النصّ الثاني ذكر أن ابن بديل على ميمنة أهل العراق ، وابن عباس على الميسرة ، وعلي على القلب بين الكوفة والبصرة . مرة أخرى : أين كان هؤلاء القرّاء ، والذين عليهم ثلاثة نفر ، هل كانوا هم الرجالة ؟ من المؤكّد أنهم لو كانوا بهذه الأهمية لزوّدتنا مصادرنا بمعلومات أكثر وضوحاً وتفصيلاً .

ولم تكتف مصادرنا بذكر « قرّاء أهل العراق » بل هي تذكر ، مرة واحدة ، فى أثناء سرد الأخبار « قرّاء أهل الشام » : « .... أقبل ذو الكلاع فى حمير ، ومن تعلقها ، معهم عبيد الله بن عمر بن الخطاب ، فى أربعة آلاف من قرّاء أهل الشام ، وعلى ميمنتهم ذو الكلاع ؛ فحملوا على ربيعة ؛ وهم ميسرة أهل العراق ... وعبيد الله بن عمر يقول : يا أهل الشام ، إن هذا الحي من أهل العراق هم قتلة عثمان بن عفان»(٤٠) .

ثم أوردت – بعد ذلك – إشارات قليلة عن « القرّاء » فى أثناء القتال منها : « ... وانكشف أهل العراق ، من قبل الميمنة . حتى لم يبق منهم إلا عبد الله بن بديل الخزاعي فى مائتين أو ثلاثمائة من القرّاء ...»(٤١) .

« .... ثم مضى هاشم بن عتبة بن أبي وقاص الزهري فى عصابة من القرّاء ؛ فقاتل قتالاً شديداً هو وأصحابه عند المساء ...»(٤٢) .

« ثم خرج عبد الله بن حصين الأزدي فى القرّاء ، الذين مع عمار ، فأصيب معه ...»(٤٣) .

« وأخذ علي يسير فيما بين الميمنة والميسرة . ويأمر كل كتيبة من القرّاء أن تقدم على التى تليها ..»(٤٤) .

والطريف فى الأمر أن أبا حنيفة الدينوري ينقل – بإيجاز – الروايات نفسها التى رواها لنا أبو مخنف ، ونصر بن مزاحم ، ومؤلف « أخبار صفين »ولم يشر إلى القرّاء فى أثناء القتال على الإطلاق ؛ فالرواية التى نقلناها – آنفاً – عن اشتراك عبيد الله بن عمر بن الخطاب فى أربعة آلاف من قرّاء أهل الشام ، يوردها الدينوري على النحو الآتي :

« وخرج يوماً ذو الكلاع فى أربعة آلاف فارس من أهل الشام ، قد تبايعوا على الموت ، فحملوا على

ربيعة ، وكانوا في ميسرة علي ، وعليهم عبد الله بن عباس ... فاشتد القتال ، حتى كثر القتلى ، ونادى عبيد الله بن عمر : أنا الطيب بن الطيب ..»(٤٥) .

وكذلك الرواية ، التي نقلناها – أيضاً – قبل قليل ، وهي أن علياً أخذ يسير فيما بين الميمنة والميسرة ، ويأمر كل كتيبة من القرّاء بأن تقدم على التي تليها . ويفهم من هذا النص أن القرّاء كانوا كتائب كثيرة تمتدّ ما بين الميمنة والميسرة في جيش علي ، ولكن الدينوري يجلو هذا الغموض ؛ حيث يقول : « ولما أصبح علي – رضي الله عنه – غلس بصلاة الفجر ، ثم أمر أصحابه ، فخرجوا تحت راياتهم ، ثم جعل يدور على رايات أهل الشام ، فيقول : من هؤلاء ؟ فيسمون له ، حتى إذا عرفهم ، وعرف مراكزهم ، قال لأزد الكوفة : أكفوني أزد الشام ، وقال لخثعم الكوفة : أكفوني خثعم . فأمر كل قبيلة من أهل العراق أن تكفيه أختها من أهل الشام ..»(٤٦) .

ونحن نميل إلى الأخذ بروايات الدينوري ؛ حيث إننا لانعرف أي ذكر أو دور للقرّاء في جيش أهل الشام غير ما ذكر أبو مخنف ، ونصر بن مزاحم ، ومن تابعهما ، وروايات الدينوري في رأينا أكثر انسجاماً مع واقع الجيشين وتعبئتهما .

والغريب أننا لم نقع على ذكر للقرّاء في معركة « الجمل » لا في تعبئة الجيش(٤٧) ولا المعركة ذاتها ، على حين أن الذين شاركوا في معركة « الجمل » هم الذين شاركوا في معركة « صفين » ولو كان في معركة صفين « كتائب من القرّاء » لكانت بالتأكيد موجودة في معركة « الجمل » قبل ذلك . ولعل تفسير ذلك أن الطبري يعتمد – في أخباره عن معركة « الجمل » على عمر بن شبّة ، والمدائني ، وسيف بن عمر ، ولا يعتمد على أبي مخنف ، ونصر بن مزاحم ، وأتباعهما .

إذا ، هل الدور المنسوب إلى «القرّاء » في صفين ، خصوصاً ، في التحكيم ، فرية تاريخية ، اخترعها أحد الرواة المبكرين ؟ لعلَّ من الأفضل التريّث في الإجابة عن هذا السؤال ، حتى بعد مناقشة موضوع التحكيم .

موقف علي وأهل العراق من التحكيم :

تعطي مصادرنا روايات متباينة عن موقف أهل العراق من عرض أهل الشام حلّ الخلافات سلمياً بالاحتكام إلى « كتاب الله » عندما رفع أهل الشام المصاحف على الرماح . وأقدم الروايات لدينا ، في هذا الشأن ، هي رواية أبي مخنف ، والتي حفظها لنا الطبري ، واعتمد عليها معظم من جاء بعده من المؤرخين ، ونصّ هذه الرواية :

« أن علياً قال : عباد الله ، أمضوا على حقكم وصدقكم في قتال عدوكم ... وما رفعوها لكم إلا

خديعة ودهنا ومكيدة ؛ فقالوا له : مايسعنا أن ندعى إلى كتاب الله – عز وجل – فنأبى أن نقبله ؛ فقال لهم : فإني إنما قاتلتهم ليدينوا بحكم هذا الكتاب ، فإنهم قد عصوا الله – عز وجل – فيما أمرهم ، ونسوا عهده ، ونبذوا كتابه ؛ فقال مسعر بن فدكى التميمي ، وزيد بن حصين الطائي ، ثم السنبسي ، فى عصابة معهما من القرّاء ، الذين صاروا خوارج – فيما بعد : ياعلي ، أجب إلى كتاب الله ؛ إذا دعيت إليه ، وإلا ندفعك برمتك إلى القوم ، أو نفعل كما فعلنا بابن عفان ، إنه علينا أن نعمل بما فى كتاب الله – عز وجل – فقبلناه ، والله لتفعلنها أو نفعلها بك . قال : فاحفظوا عني نهي إياكم واحفظوا مقالتكم لي . أما أنا فإن تطيعوني تقاتلوا وإن تعصوني فاصنعوا ما بداكم ..»(٤٨) .

أما نصر بن مزاحم فيزوّدنا بأربع روايات حول هذا الموضوع ؛ أولها : « فقال علي : اللّهم إنك تعلم أنهم ما الكتاب يريدون ، فاحكم بيننا وبينهم ، إنك أنت الحكم الحق المبين . فاختلف أصحاب علي في الرأي ؛ فطائفة قالت : القتال ، وطائفة قالت : المحاكمة إلى الكتاب ، ولايحلّ لنا الحرب ، وقد دعينا إلى حكم الكتاب ، فعند ذلك بطلت الحرب ، ووضعت أوزرها »(٤٩) .

وموقف الخليفة علي ، من خلال هذه الرواية ، غامض ، فلا نعرف إن كان القبول أو الرفض .

أما الرواية الثانية فيبدو أنها تفصيل للرواية الأولى ؛ حيث يذكر نصر أن الأشعث بن قيس الكندي ، رئيس قبيلة كندة ، وسيد أهل اليمن ، كان مع وقف القتال ، وقبول التحكيم ، وسعيد بن قيس ، رئيس قبيلة همدان اليمانية ، كان متذبذباً بين القبول وعدمه ، ورؤساء قبيلة ربيعة كلهم أشاروا بالموافقة على عرض أهل الشام ، أما الذين أشاروا بعدم قبول عرض أهل الشام فكانوا عدي بن حاتم الطائي ، وعمرو بن الحمق الخزاعي ، والأشتر النخعي(٥٠) ، هؤلاء الثلاثة كانوا من المؤلبين على عثمان ، ومن المشاركين فى الأحداث الأولى للفتنة ، وقبائلهم كانت غير ذات شأن ؛ قياساً بكندة وهمدان وربيعة ؛ نظراً لقلة عدد أفرادها ، غير أن تأثير الأشتر كان يتجاوز مذحج إلى بعض القبائل اليمنيّة الأخرى ، خصوصاً قبل حرب « صفين » .

أما الرواية الثالثة فتتفق – إلى حدّ كبير – مع رواية أبي مخنف ، التى سقناها – آنفاً – غير أنها تضيف فى الوسط : أن عليا قال « ... أعيروني سواعدكم وجماجمكم ساعة واحدة ؛ فقد بلغ الحق مقطعة ، فجاءه زهاء عشرين ألفاً مقنعين فى الحديد ، شاكي السلاح ، سيوفهم على عواتقهم ، وقد اسودت جباههم من السجود ؛ يتقدّمهم مسعر بن فدكي ، وزيد بن حصين ، وعصابة من القرّاء ، الذين صاروا خوارج – من بعد – فنادوه باسمه ، لا بإمرة المؤمنين : ياعلي ، أجب القوم ...»(٥١) .

ويضيف نصر فى مكان آخر : « فبعث علي قرّاء من أهل العراق ، وبعث معاوية قرّاء من أهل الشام ، فاجتمعوا بين الصفين ، ومعهم المصحف ؛ فنظروا فيه ، وتدارسوه ، وأجمعوا على أن يحيوا ما أحيا القرآن ، وأن يميتوا ما أمات القرآن ، ثم رجع كل فريق إلى صاحبه . وقال الناس : رضينا بحكم القرآن»(٥٢) .

ويتفق نصر مع أبي مخنف في الرواية بأن « قال أهل الشام اخترنا عمرو بن العاص ؛ فقال الأشعث والقرّاء ، الذين صاروا خوارج – فيما بعد : إنا قد رضينا بأبي موسى الأشعري ؛ فقال لهم علي : انكم قد عصيتموني ، في أول الأمر. فلا تعصوني الآن ، إني لا أرى أن أولي أبا موسى ؛ فقال الأشعث ، وزيد بن حصين الطائي ، ومسعر بن فدكي : لاترضى إلا به ؛ فإنه كان يحذرنا مما وقعنا فيه . . »(٥٣) .

وأما رواية نصر الرابعة فهي تعطي القرّاء دوراً مناقضاً للدور ، الذى ذكرته الرواية السابقة . « جاءت عصابة من القرّاء قد سلّوا سيوفهم ، واضعيها على عواتقهم ؛ فقالوا : يا أمير المؤمنين ؛ ما تنظر بهؤلاء القوم أن نمشي إليهم بسيوفنا حتى يحكم الله بيننا وبينهم بالحق ؛ فقال لهم علي : قد جعلنا حكم القرآن بيننا وبينهم ، ولايحلّ قتالهم حتى ننظر بما يحكم القرآن . . »(٥٤) .

وليس من ريب في أن الانقسام والاضطراب والبلبلة ، التى حدثت في معسكر أهل العراق ؛ نتيجة لرفع أهل الشام المصاحف ، طالبين الاحتكام إليها ، في حلّ النزاع بين الفريقين قد انعكست – بشكل أو بآخر – على الروايات التاريخية حول الموضوع ، ولعل الروايات ، التي سقناها – آنفاً – تمثّل ذلك خير تمثيل .

ويبدو أن مؤخي القرنين الثالث والرابع الهجريين كانوا على اطلاع على روايات أبي مخنف ونصر حول الدور المنسوب إلى « القرّاء » لكنهم استبعدوها من كتاباتهم ، مع استثناءات بسيطة ، ربما لعدم قناعتهم بصحتها ، على أنهم – في الوقت نفسه – لم يتعرّضوا لها بالنقد أو التفنيد ، على أن هؤلاء المؤرخين ، عندما يتحدثون عن الخوارج ، يتابعون أبا مخنف في ذكر أنهم كانوا ، قرّاء ؛ وفيما يلي استعراض موجز لروايات هؤلاء المؤرخين عن موقف علي وأهل العراق في التحكيم :

(١) يذكر مؤلف « أخبارصفين » أن رؤساء قبائل اليمن وربيعة هم الذين قبلوا التحكيم ، أما رؤساء قبيلة تميم فقد أشاروا على علي بعدم الموافقة . وكان الذي سعى به الأشعث وأهل اليمن .(٥٥) ولا يورد للقرّاء أي ذكر في هذا الإطار ، ويذكرهم في أخبار الخوارج(٥٦) .

(٢) ابن أعثم الكوفي (ت – ٣١٤هـ) ينقل في كتابه « وقعة صفين » مرة أن أهل اليمن برئاسة الأشعث هم الذين أجبروا علياً على قبول التحكيم(٥٧) وأخرى ينقل أن الأشعث والقرّاء الذين صاروا خوارج – فيما بعد – هم الذين قاموا بذلك(٥٨) .

(٣) خليفة بن خياط (ت – ٢٤٠هـ) بالرغم من أن أخباره موجزة جداً ، لكن مصادره متعددة ومتنوعة ، ومع هذا فلم يشر إلى القرّاء على الإطلاق(٥٩) .

(٤) أبو حنيفة الدينوري (ت –٢٨٢هـ) يروي أخباراً كثيرة عن معركة صفين ؛ قياساً بغيره من المؤرخين ، ويذكر في سرده للأخبار نفسها الروايات التي يذكرها أبو مخنف ، ونصربن مزاحم ، ولكنه لم يشرإلى القرّاء إلا مرة واحدة ؛ عند الحديث عن التحكيم ؛ حيث يقول : « وكان مسعربن فدكي ، وابن

الكواء ، وطبقتهم من القرّاء ، الذين صاروا خوارج ، فيما بعد ، كانوا من أشدّ الناس فى الإجابة إلى حكم المصحف »[٦٠] .

(٥) اليعقوبي (ت – ٢٨٤هـ أو ٢٩٢هـ) يقول إن أهل اليمن ، برئاسة الأشعث هم الذين وافقوا على التحكيم ، واختاروا أبا موسى حكماً ، رغماً عن علي[٦١] .

(٦) ويتفق المسعودي (ت ٣٦٤هـ) إلى حدّ كبير ، مع اليعقوبي ، إلا أنه قال : « وقال الأشعث ، ومن ارتدّ إلى رأي الخوارج »[٦٢] . وعند حديثه عن بداية الخوارج قال : « وعندما دخل على الكوفة انحاز عنه اثنا عشر ألفاً من القرّاء وغيرهم ؛ فلحقوا بحروراء»[٦٣] .

أما المؤرخون المتأخّرون ؛ مثل ابن الأثير (ت ٦٢٠هـ) وابن كثير (ت ٧٧٤هـ) وابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) فقد اعتمدوا على الطبري ، فى روايات لأحداث معركة « الجمل » بالبصرة ، ومعركة « صفين » وقد نصوا على ذلك صراحة ، فى مواضع مختلفة ، من كتبهم[٦٤] . على أنه يجب القول إن ابن كثير استخدم مصادر أخرى ؛ مثل كتاب « الخوارج » للهيثم بن عدي ، وقد وصفه بأنه أحسن ما ألف فى هذا الموضوع[٦٥] ، وإبراهيم بن ديزيل ، فى كتابه « سيرة علي » وغيرهم[٦٦] .

وننتقل إلى عرض آراء الدارسين المحدثين حول « القرّاء » وكان اعتمادُهم على رواية أبي مخنف ونصر ، وقد أعطى الدارسون الغربيّون هذه النقطة من الاهتمام أكثر مما أعطاها الدارسون العرب ، ولن نتعرّض لكل آراء الدارسين الغربيين ؛ فأحيانا بعضهم ينقل عن بعض ، وأحياناً قد تكون من الغرابة ؛ بحيث يجب ألا يلتفت إليها ، ومن بين الدارسين الغربيين فلهوزن Wellhausen فهو يقبل رواية أبي مخنف ، كما هي تقريباً ، يقول : « فحينما لاح خطر الهزيمة رفع أهل الشام المصاحف على أسنّة الرماح ... فأحدثوا ، فى أهل العراق ، الأثر المطلوب ، خصوصاً فى القرّاء الأتقياء ؛ حقاً إن علياً قد أدرك الحيلة ، بيد أنه لم يستطع أن يبدّد مفعولها ؛ بل قد هدّد شخصياً لما حاول ذلك[٦٧] . وقد فنّد فلهوزن آراء زملائه من المستشرقين ؛ لاتهامهم أبا موسى الأشعري ، والأشعث بن قيس الكندي ، بالخيانة ، والتواطوء مع أهل الشام[٦٨] .

أما برنّوف Brunnow فيميّز بين القرّاء والخوارج ، إذ يرى أن جماعة القرّاء وقفوا القتال ، ثم احتج الخوارج – بعد ذلك – على وقف القتال ، وهؤلاء الخوارج كانوا من البدو[٦٩] .

وللدكتور شعبان فى كتابه "Islamic History" تفسير لمفهوم القرّاء لايخلو من غرابة ؛ فهو يرى أن القرّاء أصلاً من « أهل الأيام » أي الذين اشتركوا فى الفتوحات المبكّرة والسابقة للقادسية ، وكان هؤلاء يتمتّعون بمكانة متميّزة بين الفاتحين المتأخّرين ، وبسبب سبقهم ، وتقديراً لمكانتهم ، فقد أسند لهم الإشراف على أراضي وقرى السّواد ؛ وهي الأراضي التى لم توزّع بين الفاتحين . وبسبب مهامهم الإشرافية تلك اكتسبوا اسم « القرّاء » ولقد فهم هذا الاسم ليعني قرّاء القرآن ، حتى من قبل بعض المؤرخين المتقدّمين ، وبالرغم من أن التسمية معقولة ، من ناحية الاشتقاق اللفظي ، لكنّه من الصعب

قبول فكرة آلاف من قرّاء القرآن نظموا في كتائب مستقلة ، كلّهم يحاربون في صفين ، بعد سنوات قليلة ... وكل الدلائل تشير - بوضوح لالبس فيه - إلى أنهم هذه المجموعة المعروفة سابقاً بأهل الأيام ، وكلمة « القرّاء » يجب أن تفهم أنها ليست إلا اشتقاقاً آخر من الأصل « قرى » أي أنها مماثلة لكلمة « أهل القرى »[٧٠] .

ويختلف هاينز Hinds مع شعبان ؛ إذ يرى أن كلمة القرّاء مأخوذة من قراءة القرآن ، ويتفق معه تقريباً في مفهومها ؛ فيقول : إن من كانوا يسمّون بالقرّاء كانوا من « أهل الأيام » أي الفاتحين ، الذين اشتركوا في الحروب ، والفتوحات الإسلامية السابقة لليرموك والقادسية . ومن أوائل الذين اشتركوا في فتوحات العراق ، إلا أنهم كانو ينتمون - أصلاً - إلى قبائل صغيرة ، وعندما بدأ تتابع هجرات القبائل من جزيرة العرب إلى الكوفة ، وكانت تلك الهجرات تسمّى الروادف ، وانضمّوا إلى قبائلهم ، وأخذوا يشاركون في الفتوحات - بعد ذلك - فقويت بهم قبائلهم ورؤساؤها ، وفي الوقت نفسه أخذت تضعف مكانة « أهل الأيام » الذين ينتمون إلى قبائل صغيرة ؛ فتسمّوا « بالقرّاء » بينما يسمى أهل الأيام الذين قوى نفوذهم ، وارتفعت مكانتهم ، بهجرات قبائلهم « الوجوه »[٧١] .

وبعد أن عرضنا مفصلاً لروايات المؤرخين المسلمين ، وبعض آراء الدارسين المحدثين عن القرّاء ، وموقفهم من التحكيم ، نعود لمناقشة رواية أبي مخنف ونصر ، ونبدأ ذلك بسؤال : من هم هؤلاء القرّاء ، الذين صاروا خوارج فيما بعد ؟ فالرواية تجعلهم من القوة بحيث لا يملك علي أهل العراق معهم من أمرهم شيئاً ؛ فهم - مع الأشعث - أجبروا علياً على وقف القتال ، وقبول التحكيم ، وهم الذين اختاروا أبا موسى حكماً عن أهل العراق ، رغم عدم موافقة علي على ذلك .

وإذا كانوا بهذا الحجم ، وبهذه القوة ، فلماذا لم نسمع بهم ، قبل ذلك ، في معركة الجمل ، وفي الكوفة ، وفي القتال ؟ من المؤكد أنه لو كان لهؤلاء القرّاء وجود حقيقي لكان لهم دور بارز ، في أثناء القتال . ولرددت مصادرنا أفعالهم ، وأسماء زعمائهم ، ومواقفهم في كل المناسبات ؛ مثلما تفعل مع أشخاص ليس لهم من الأهمية والقوة ما لهؤلاء حسب تصوير الرواية .

والغريب أن الرواية لاتذكر لنا غير اسمين من رؤسائهم ؛ هما مسعر بن فدكي التيمي ، وزيد بن حصين الطائي ؛ فالأول ورد له ذكر مرة واحدة ؛ حيث ولّاه علي على قرّاء البصرة ، أما الثاني فهو من وجوه قبيلة طيِّيء ، ووصف بأنه « من أصحاب البرانس المجتهدين » وهو - أيضاً - لم تذكره مصادرنا ، قبل التحكيم ، إلا مرة واحدة ، قبل القتال[٧٢] . فهل يعقل أن شخصين لم يكن لهما أي دور قبل وفي أثناء القتال يستطيعان مع « عصابة القرّاء » فرض وقف القتال ، وقبول التحكيم ؟

وثمة نقطة مهمة يجب الإشارة إليها ؛ وهي أنّه لم يرد أي ذكر لإسهام الذين تمرّدوا على علي وجيشه ، وأصبحوا خوارجَ ؛ مثل : شبث بن ربعي التميمي ، وعبد الله بن الكواء اليشكري ، وشريح بن أوفى

العبسي . وحرقوص بن زهير السعدي . وعبد الله بن أبي وهب الراسبي ، وربيعة بن أبي شداد الخثعمي . وهؤلاء لم يكونوا مغمورين . فمما يدل على مكانة شبث بن ربعي أن علياً بعثه مع بشير بن عمرو بن محصن الأنصاري . وسعيد بن قيس . رئيس قبيلة همدان ، ليدعوا معاوية للطاعة والجماعة (٧٣) . وقد ولاه علي – أيضاً – في بداية الحرب على عمرو وحنظلة . الكوفة (٧٤) وعندما تخلى عن مذهب الخوارج أصبح من سادات بني تميم في الكوفة (٧٥) . وكان عبد الله بن الكواء اليشكري على راية بني يشكر (٧٦) . وكان عبد الله بن وهب الراسبي على راية قضاعة البصرة (٧٧) . وكان ربيعة بن شدّاد الخثعمي على راية خثعم (٧٨) وربما أن الآخرين كانوا – أيضاً – رؤساء في قبائلهم . ألم يكن لهؤلاء أي دور إيجابي في القتال . أو قبله يستحق الذكر ؟ ولماذا تذكر تفاصيل عن كل القبائل . ولا نجدشيئاً عنهم ؟ أم أن مصادرنا تعمدت طمس كل خبر إيجابي عنهم ؟ هل أصحاب هذه الرايات وقبائلهم . ومعهم غيرهم من القبائل ، كانوا هم القرّاء الغامضين ؟ فإذا كان الأمر كذلك فلماذا يوصفون بالقرّاء ؟ على أية حال يبدو أن الغموض كان متعمداً من قبل الرواة .

والذي نذهب إليه أنه من غير المعقول أن يظهر « القرّاء » الذين صورتهم الرواية فجأة ، وبهذه القوة والتنظيم ، ثم يتولون – مع الأشعث – تحديد مصير علي وأهل العراق . ثم ما الذي يجمع بين الأشعث والقرّاء ، بين رئيس قبيلة تقليدي يريد أن يكرس القبيلة والعصبية اليمنية ، ويريد الهيمنة على القبائل الأخرى وبين القرّاء الذين يفترض أنهم يسعون إلى جعل الوحدة الإسلامية فوق العصبيات القبلية ، ويسعون إلى تكريس المفاهيم الإسلامية .

ثم إذا كان باستطاعتهم فرض أبي موسى على علي ، ليكون حكماً عن أهل العراق ، لماذا لم يختاروا واحدا من بينهم ، من المؤكّد أنه سيمثل مصالحهم ، ووجهة نظرهم ، خيراً من أبي موسى .

ولدينا تساؤلات أخرى – أيضاً – وهي : هل كل « القرّاء » أصبحوا خوارجَ ؟ فإذا كان الأمر كذلك فلماذا ثاروا فجأة على كل الترتيبات والإجراءات ، التي قاموا بفرضها على علي ، وجيش أهل العراق ، وتمرّدوا وانشقوا على علي ، وقبائلهم المكونة لجيش أهل العراق ؟ وإذا كان اختيارهم أبا موسى لسببين : « أنه حذرهم مما وقعوا فيه » و « أنه محايد بين علي ومعاوية » فلماذا لم ينتظروا نتائج التحكيم ؟ هل لأن عقولهم كانت أشبه بعقول الأطفال ، فجعلتهم يتصرّفون هذه التصرفات المتناقضة والخطيرة ؟ فإذا كان الأمر كذلك فلماذا لم يكن لهم تصرفات مشابهة فيما سبق من أحداث ؟ أو أن القرّاء كانوا يشكلون قوة متآمرة ، لها هدف خفي هو تمزيق صفوف جيش علي ، وأهل العراق ، ونجحوا في تحقيقه . لكن ما هي الدوافع والأسباب ؟

فإذا كان قسم من « القرّاء » أصبحوا خوارجَ فلماذا لم يوصف القسم الآخر منهم أبدا – بعد ذلك – بـ « القرّاء » .

لقد سببت هذه الروايات عن « القرّاء » إشكالا تاريخياً للمؤرخين القدامى ، والدارسين المحدثين .

على السواء ؛ فها هو المستشرق برنوف Brunnow يحار في أمرهم ، ويستعصى عليه تصنيفهم ؛ فيقول :

« وليس للمرء أن ينظر إلى هؤلاء ، على أنهم يؤلفون طبقة محددة ؛ بل هم كانوا غير واضحي المعالم ؛ حتى إن رجالا مثل : قيس بن سعد ، وهاشم بن عتبة ، وابن بديل ، كانوا يعدّون – أحياناً – منهم ، كذلك لم يكونوا يؤلفون حزباً سياسياً ذا برنامج محدد ثابت ، فمنهم من كان في صف أهل الشام ، ومنهم من كان في صف أهل العراق ، كما أن فريقاً من قرّاء العراق ، الذين انضم أغلبهم إلى علي ، وحاربوا في صفه – نقول : إن فريقاً يبلغ قرابة أربعمائة ، قد تخلفوا عن القتال ، وقفوا في أماكنهم ؛ امتثالا لموقف عبد الله بن مسعود ، القاريء الصحابي الشهير ، الذي كان رأيه ، في هذه المسألة ، كرأي أبي موسى الأشعري »[٧٩] .

ولم تكن حيرة « نايف معروف » في أمر هؤلاء « القرّاء » أقل من حيرة « برنّوف » بل هو يذهب في تفسير مواقفهم المتناقضة ؛ وفقاً للروايات ، إلى تآمرهم ضد الخليفة ؛ فيقول : « ولعلّ وجه الغرابة في الأمر أن قرّاء أهل الشام لم يعترضوا سبيل معاوية ، ولم يتدخّلوا في اختيار ممثله في الحكومة ؛ في حين نجد فريقاً من قرّاء أهل العراق يفرضون على علي إنهاء الحرب أولاً ، ويفرضون عليه أبا موسى الأشعري ممثلاً له في الحكومة ثانياً .

وفي الوقت ذاته – تقريباً – نجد فريقاً آخر من جماعة القرّاء ؛ يتقدمهم عبد الله بن وهب الراسبي ، يأتون علياً ، بعد قبوله التحكيم ؛ فيعترضون على ذلك ، ويطلبون منه استئناف القتال ضد معاوية . ولعل هذا يشير إلى أن الأمور لم تكن تسير على مايرام في معسكر علي ، وأن أناساً يضمرون العداوة لأمير المؤمنين قد تجلببوا بجلابيب التقوى ، وتسللوا إلى مكان الصدارة بين أصحابه ، صاروا يعملون على إحراجه ، في المواقف الحاسمة المصيرية »[٨٠] .

لقد طرحنا – فيما سبق – السؤال التالي : هل الدور المنسوب إلى القرّاء » في صفين ، خصوصاً في التحكيم فرية تاريخية ؛ اخترعها أحد الرواة المبكرين ؟

الذي نذهب إليه أنها كذلك ، وقبل أن نذكر رأينا في الدوافع والأسباب لاختلاقها ، نقول : إن الأشعث بن قيس ، وقبائل اليمن ، وقبائل ربيعة كلها ، وافقت على وقف القتال والتحكيم ، أما رؤساء قبيلة تميم فأشاروا على الخليفة علي بعدم الموافقة . وكان أشدّ الرؤساء حماساً في ذلك الأشعث بن قيس ، وأهل اليمن ؛ إذ قالوا : والله لا يرمي معك يماني بسهم إن لم تقبل التحكيم[٨١] . ورؤساء القبائل أعلنوا عن آرائهم في الموافقة في خطب واضحة غاية الوضوح .

وإذا كان الأمر كذلك فهل من حاجة للقرّاء المزعومين أن يجبروا علياً على قبول التحكيم ، حين قبله معظم جيشه ، وأن يهددوه بالقتل ؟ صحيح أنه لم يكن هناك إجماع تامّ على قبول التحكيم ؛ إذ نرى أن بعض أفخاذ القبائل ، وبعض الأفراد ، كان رأيهم عدم قبول التحكيم ، والاستمرار في وقف القتال ،

لكن تأثيرهم ونفوذهم كان ضئيلاً بجانب الآخرين ؛ يقول المسعودي : « ومرّ الأشعث بالصحيفة يقرؤها على الناس فرحاً مسروراً ، حتى انتهى إلى مجلس لبني تميم في جماعة من زعمائهم ... فجرى بين الأشعث وبين أناس منهم خطب طويل ... [٨٢] ».

وبالرغم من أن ثلاثة من رؤساء الخوارج الأولين (حرقوص بن زهير السعدي ، وشبث بن ربعي ، ومسعر بن فدكي) كانوا من بني تميم ، ومعظم الخوارج المتأخرين كانوا من هذه القبيلة ، فيجب ألا يفهم موقف زعمائهم – على الأقل ، الذين حفظت لنا أقوالهم – أنه كان متشدداً ، بل هو – في رأيي – لا يخرج عن إطار المساومة والتنافس القبلي ، إذا رأوا أنهم ، بالموافقة على وقف القتال ، أصبحوا تابعين للأشعث بن قيس ، وأهل اليمن ، وما محاولة سيّدهم الأحنف بن قيس لأن يكون الحكم ، أو مساعدا للحكم ، إلا في هذا الإطار .

إذاً ، لماذا وافقت معظم القبائل إلى « الاحتكام إلى القرآن » في حلّ النزاع بينهم وبين أهل الشام ، مع أنه كان بإمكانهم الوصول إلى هذا الحلّ ، قبل ذلك ، ودون اللجوء إلى القتال أصلاً ؟ لعل إلقاء الضوء على مواقف القبائل ورؤسائها من القتال يساعد في فهم مواقفهم من قبول التحكيم .

إن الأشعث بن قيس الكندي ، رئيس قبيلة كندة ، كان أقوى رؤساء القبائل في العراق ، وقوته تأتي من قوة قبيلته ، وشرفه في الجاهلية والإسلام ، ونفوذه في القبائل اليمنية الأخرى . ونظراً لمكانته فقد زوجه الخليفة أبو بكر أخته ، وتزوج ابن الخليفة عثمان من ابنة الأشعث ، وقد شارك في فتوحات العراق ، وقد « فتح عامة أذربيجان » وولّاه عليها الخليفة عثمان « طعمة » [٨٣] أي لايؤدي شيئاً من خراجها إلى بيت المال ؛ بل يفرّقه على قبيلته ، التي كانت بمثابة حامية عسكرية .

وعلى هذا فقد كان الأشعث ، ومعظم قبيلته ، في أحسن حال ، في عهد الخليفة عثمان ، ومع ولاته في الكوفة . إذاً فتغيير الأوضاع لم يكن في مصلحتهم ؛ بل من المؤكد أنه أساء إليهم ، وأضرَّ بهم . ولم يكن موقف الأشعث من الخليفة علي ودياً ، بل إنه فكر في الهرب إلى معاوية ، عند مقدم الخليفة علي إلى الكوفة ، لولا أن قبيلته ناشدته : « الموت خير لك . أتدع مصرك وجماعة قومك ، وتكون ذنباً لأهل الشام ؟ » [٨٤] .

وطبيعي أن ينحسر ، في ظل هذه الظروف ، نفوذ الأشعث ، مقابل توسّع نفوذ الأشتر النخعي ، الذي كسب شهرته من التأليب على الخليفة عثمان ، وما تلاه ، ومن دوره في جيش الخليفة علي ؛ بحيث أصبح أقوى رجال العراق .

إذاً فالأشعث كان بين ثلاثة أمور أحلاها مر ؛ وهي : الهرب إلى الشام ، أو الاعتزال ، أو الانضمام إلى جيش الخليفة علي ، فاختار الأخير مكرها .

أما قبائل اليمن الأخرى ؛ مثل : همدان ، والأزد ، وقبائل ربيعة ، فكانوا يعتقدون أنه بالإمكان تحقيق نصر على أهل الشام ؛ مثلما تمّ تحقيق نصر على أهل البصرة ؛ ولذلك فمن مصلحتهم الانضمام إلى

الخليفة . ومناصرته ؛ حتى لاتذهب القبائل الأخرى بالفخر . والشرف ، وربما بالغنائم دونها .

وأما قبائل تميم فكانت أغلبيتها تقطن البصرة ، والتزم معظمهم الحياد في معركة « الجمل » ، ولم تنضمّ إلى الخليفة علي إلا عند مسيره إلى « صفين » وكانت تأمل بما تأمل به القبائل الأخرى .

وبعد القتال أدركت قبائل العراق صعوبة تحقيق نصر على أهل الشام ، دون أن يفنى منهم أناس كثيرون ، وأخذت تتغير نظرتها ومواقفها ، فرأت المصلحة في وقف القتال . في ظل هذه الظروف أخذ الأشعث – بسرعة مذهلة – يستعيد نفوذه ؛ حتى أصبح – تقريباً — صاحب القرار ، حيث إن قبائل اليمن وغيرها رأت صواب وجهة نظره ، وفي الوقت نفسه أخذ ينحسر نفوذ الأشتر ، والمتشددّين أمثاله .

وأحست قبيلة تميم بالمرارة والهوان ؛ إذ أصبح قرار وقف القتال . أو استمراره ، بيد قبائل أهل اليمن ؛ وهي لاتملك من الأمر شيئاً . أما قبيلة ربيعة فهي حليفة لقبيلة كندة ، ورايتهم واحدة (٨٥) وربما أنه كان هناك تنسيق وثيق بين الأشعث ورؤسائها يدلّ على ذلك انسجام مواقفهم .

أما اختيار أبي موسى الأشعري حكماً عن أهل العراق ؛ فينسجم تماماً مع موقف الأشعث بن قيس ؛ إذ كان مثله ضد الفتنة ، وكان ينهي عنها ، وينصح أهل الكوفة في المسجد بعدم الانضمام إلى الخليفة علي ؛ لقتال طلحة والزبير (٨٦) ، وكان في الوقت نفسه لا يقرّ معاوية على دعواه . وأبو موسى الأشعري محبوب مؤتمن من قبائل اليمن بخاصة . وقبائل العراق بعامة . وقد ولاه عمر على البصرة والكوفة . على التوالي .

وعندما منع أهل الكوفة– بقيادة الأشتر – سعيد بن العاص من دخولها . وردوه إلى المدينة . ولوا عليهم أبا موسى . وماكان من الخليفة عثمان إلا أن يقرّه . إرضاءً لهم (٨٧) . ليس هذا فحسب ؛ بل إن الخليفة علي ، عندما قام بعزل عمّال الخليفة عثمان . سأله الأشتر أن يقرّ أبا موسى على الكوفة ففعل (٨٨) .

وبناءً على ماذكرنا فإن أبا موسى مقبول – تقريباً – من كل أطراف جيش علي . وموقف أبي موسى معروف وواضح ؛ فهو ضد الفتنة . وحرب المسلمين . بعضهم بعضاً . وعند ما يمثل أهل العراق فمن المؤكد أنه سوف يسعى إلى إبطال الحرب . ووحدة المسلمين . ما وسعه ذلك .

ومن هنا يفهم حرص الأشعث – وهو الذي قد لايقلّ عن حرص أهل الشام – على حذف لقب « أمير المؤمنين » والاكتفاء فقط بذكر « . . . . علي بن أبي طالب . . . . قاضي على أهل الكوفة . ومن معهم من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين . . . . » (٨٩) إذ إن علياً بموافقته على حذف لقب « أمير المؤمنين » أصبح « رئيس أهل العراق » وبذلك مهّد الأشعث السبيل أمام أبي موسى . وحكم أهل الشام ؛ ليختارا للأمة الإسلامية شخصاً ثالثاً ؛ يكون مقبولاً من الجميع ؛ فهو يعرف أن علياً لن يكون مقبولاً من أهل الشام ، ومعاوية لن يكون مقبولاً من أهل العراق . والأشعث يتمنى ألا يكون أي منهما .

وعندما حاول علي أن يعيّن عبد الله بن عباس حكماً . رفض الأشعث . وأهل اليمن ؛ لأنه لايتفق معهم في وجهة نظرهم . ولا يمثل مصالحهم ؛ حيث إنّه يمثل وجهة نظر الخليفة علي . وكذلك رفضوا

المحاولة اليائسة ، التى قام بها سيّد تميم الأحنف بن قيس السعدي ، وقالوا : والله لايحكم فيها مضريان ؛ بل يمني وقرشي [٩٠] . وقريش وتميم كلاهما من مضر .

وقد شخص الدكتور الدوري وضع الخليفة علي مع قبائل العراق بقوله : « وقد تحرّج مركز علي فى العراق ؛ فالكوفة قبلية حتى فى تخطيطها ، وتوزيع سكانها ، وقبائلها محافظة على تقاليدها البدوية ، ولم تختلط بالشعوب الأخرى ، ولم تتأثر بالتقاليد الحضرية بعد ، ولاتفهم فكرة الدولة ، ولكن الإمام علي سار فى الكوفة ، وفق الاتجاهات الإسلامية فكان هذا لا يناسب الكوفيين ، الذين يفكّرون بمصلحتهم ، ومصلحة إقليمهم ، ويريدون الاستئثار ؛ ولذلك نجد اتجاهه يصطدم فى كل أزمة » [٩١] .

وبعد أن أوضحنا موقف القبائل بدءا بالمسير إلى الحرب ، وانتهاءً بوقف القتال ، وقبول التحكيم ، وقد أبدينا رأينا – قبل ذلك – فى عدم قبول رواية أبي مخنف ونصر ، حول « دور القرّاء فى التحكيم ، واختيار الحكم » يمكن للمرء أن يسأل : ألم يكن للقرّاء وجود أصلا فى صفين ؟ وتحاشياً من أن نوهم القاريء بالتناقض نقول : **ربما أنه كان مجموعة أطلق عليها اسم القرّاء مؤقتاً ، فى أثناء القتال ، لكن الروايات التي ذكرناها منسوبة إليهم غير صحيحة .**

إذاً ، من هم هؤلاء القرّاء ؟ لانستطيع الجزم بوجود « القرّاء » ولكن يحتمل أن علياً كان يجمع القبائل الصغيرة ؛ مثل : أسلم ، وأشجع ، ومحارب ، وربما خزاعة ، وقد ينضم إليهم بعض الأفراد من قبائل أخرى ؛ نظراً لقلة أعدادهم ، تحت راية واحدة ، ويولّي عليهم رجلاً ليس من قبائل العراق ، ويكون ذا سابقة فى الصحبة ، أو ذا بلاء فى الفتوحات ؛ مثل : عمار بن ياسر ، وسعد بن قيس بن عبادة الأنصاري ، وهاشم بن عتبة بن أبي وقاص الزهري ، وعبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي . وليس – بالضرورة – أن تكون مساكنها متجاورة ، أو أن تحارب بصفة مستمرة ، تحت هذه الراية ؛ إذ يمكن أن تنضم – فى بعض الأحيان – إلى إحدىٰ القبائل الكبيرة .

وكان مثل هذا الائتلاف القبلي فى الجاهلية يسمون : « الأحابيش » و « الحباشة » [٩٢] ، أو « الأحلاف » وكذلك فى الإطار القبلي فى الإسلام يسمون : « الأحلاف » أو « أفناء القبائل » [٩٣] أو « اللفيف » [٩٤] . ولكن قادة هذه الراية كانوا من المستبصرين فى قتال « الفئة الباغية » معاوية وأهل الشام ، ولا بد أن بعض المقاتلين يشاركونهم نظرتهم ، واجتهادهم ، إذا فالأسماء القبلية لاتليق بهم . وإنما يليق بهم اسم إسلامي كريم ، هو « القرّاء » وربما أنهم أطلقوا على أنفسهم هذه التسمية . و« القرّاء » يجب ألا تفهم فى مدلولها الضيّق ؛ وهو « قرّاء القرآن » بل تعني قراءة القرآن ، وحفظه ، والفقه ، والعلم بالدين . فكلمة قاريء تعادل « العالم بالدين » ولقد أحسن ابن خلدون فى تعريفهم ؛ فقال : « فقيل – يومئذ – لحملة القرآن : قرّاء ... فهم قرّاء لكتاب الله ، والسنة المأثورة ، عن رسول الله . » [٩٥] .

فإذاكان افتراضنا بوجود أصحاب هذه الراية ، وأنهم حملوا هذا الاسم ، صحيحاً ، فلا نعتقد أنه كان لهم دور أو مصلحة في معارضة الخليفة علي بن أبي طالب .

ويبدو أن أحمد أمين لايعتقد بوجود « قرّاء » وإن لم يذكر ذلك صراحة ؛ لذلك نراه يقول : « وإذ ذاك ظهر قوم من جند علي ، أكثرهم من قبيلة تميم ، نفروا من أن يحكم أحد في كتاب الله ، ورأوا أن التحكيم خطأ ؛ لأن حكم الله في الأمر واضح جلي »(٩٦) .

أما الدكتور الدوري فهو يقرّ وجود القرّاء ، ولكنه لا يرى أنهم أوائل الخوارج ، ويقول : « ولم يكن الخوارج الأولون من القرّاء ، كما ظن البعض ، بل إن هؤلاء انضموا إليهم ، فيما بعد »(٩٧) .

ثمة نقطة أخيرة ، يتوجب علينا مناقشتها ؛ وهي الدوافع والأسباب خلف الروايات ، التي حملت « القرّاء الذين صاروا خوارج ، فيما بعد » مسؤلية وقف القتال ، والتحكيم ، ونتائجه الفاشلة .

أدرك الرواة الكوفيون أن قبول التحكيم كان كارثة للخليفة علي وأهل العراق . والخليفة كانت سلطته أصلاً على قبائل العراق ضعيفة ، وزادت ضعفاً بقوة الأشعث ، وانشقاق جيش أهل العراق ، ثم حدثت المواجهة العسكرية بين شطري الجيش ، وانتهت باستئصال الفئة المنشقة في الميدان ، لكن مبادئهم وأفكارهم زادت انتشاراً ، وآمن بها ناس كثيرون ، وخرجوا من أمصارهم ؛ فأصبحوا خطراً على أهل هذه الأمصار ، ثم أخذت المآسي تتوالى ، حتى وصلت قمتها باغتيال الخليفة علي ، على يد أحد الخوارج .

ثم توحدت الأمة الإسلامية ، مرة ثانية ، تحت قيادة معاوية وخلفائه من بني أمية ، وبذلك تحوّلت الكوفة وأهلها إلى مصر تابع لأهل الشام يرسل لها الأمويون ولاة مستبدين ؛ مثل : زياد ، وابنه عبيد الله ، والحجاج ؛ لقمع شوكتهم ، وأصبحت الكوفة مركزاً للمعارضة ، ومفرخة للثورات ضد الأمويين ، ليس هذا فحسب ؛ بل إن ضربات الخوارج الموجعة كانت أشدّ إيلاماً من قمع الأمويين ، ولم يكتف الخوارج بالضربات المسلحة ، بل كانوا يعيّرونهم بالتكالب على الدنيا ، وبالنفاق ، والكفر .

كانت هذه هي الظروف التي تعيشها العراق ، وخصوصاً الكوفة ، في النصف الثاني من القرن الأول الهجري ، وكانت نتيجة لقبول التحكيم في « صفين » فما أحرى الرواة الكوفيين – إذاً – أن يحملوا المسئولية أعداءهم الخوارج ، ويتخلّصوا منها من ناحية ، ويجعلوا دعوى الخوارج تناقض نفسها : « فهم الذين أجبروا علياً على قبول التحكيم ؛ وهم الذين ثاروا عليهم ؛ بسبب قبولهم التحكيم » .

ويجب لفت الانتباه إلى أن رواية أبي مخنف (ت ١٥٧هـ) أضيف إليها ، مع مرور الزمن ، إضافات خطيرة في رواية نصر (ت ٢١٢هـ) علماً أن الفرق بين وفاة الاثنين حوالي ستين سنة . والإضافة هي : « ... فجاء زهاء عشرين ألفا مقنعين في الحديد ، شاكي السلاح ، وسيوفهم على عواتقهم ، قد اسودّت جباههم من أثر السجود ، يتقدمهم مسعر بن فدكي ...» .

وهناك رواية ، هي – في الحقيقة – مكملة للرواية ، التي ناقشناها – فيما مرّ – وآثرنا تأجيل

مناقشتها : لنختتم بها هذا البحث : وهي حول موقف الأشتر والقرّاء من التحكيم . ونظرا لطولها سوف نقتبس منها مقاطع فقط .

« قال أبو مخنف : حدثني فضيل بن خديج الكندي . عن رجل من النخع : أنه رأى إبراهيم بن الأشتر دخل على مصعب بن الزبير . قال : كنت عند علي . حين أكرهه الناس على الحكومة . وقالوا له : ابعث إلى الأشتر فليأتك . قال : فأرسل علي يزيد بن هانيء السبيعي ... فأتاه : فبلغه : فقال : قل له : ليس هذه الساعة . التي ينبغي لك أن تزيلني فيها عن موقفي . إني قد رجوت أن يفتح لي فلا تعجلني : فرجع يزيد بن هانيء إلى علي فأخبره... »(٩٨) .

ثم تتمّ مواجهة بين الناس . الذين أكرهوا علياً على الحكومة وبين الأشتر : فيقول الأشتر :

« يا أهل العراق . ياأهل الذلّ والوهن . أحين علوتم القوم ظهراً . وظنوا أنكم لهم قاهرون . رفعوا المصاحف يدعونكم إلى مافيها ... فلا تجيبوهم . أمهلوني عدو الفرس . فإني قد طمعت في النصر . قالوا إذاً ندخل معك في خطيئتك . قال : فحدثوني عنكم . قد قتل أماثلكم . وبقي أراذلكم . متى كنتم محقين ؟ أحين كنتم تقاتلون وخياركم يقتلون ! فأنتم الآن - إذا أمسكتم عن القتال . مبطلون أم - الآن - أنتم محقون !... فقالوا : دعنا منك ياأشتر . لسنا مطيعيك . ولا مطيعي صاحبك . فاجتنبنا : فقال : خدعتم فانخدعتم . ودعيتم إلى وضع الحرب فأجبتم . ياأصحاب الجباه السود . كنّا نظنّ صلواتكم زهادة في الدنيا . وشوقاً إلى الآخرة . فلا أرى فراركم إلا إلى الدنيا من الموت . ألا قبحاً يا أشباه النيب الجلالة : ما أنتم بارئين بعدها عزاً أبداً . فسبوه وسبهم . فضربوا وجه دابته . وأقبل بسوطه يضرب وجوه دوابهم ... » .

وسوف نلقي - أولاً - نظرة على مصدر هذه القصة . والجو الذي قيلت فيه . ثم نلقي نظرة على محتواها : فمصدر القصة . هو إبراهيم بن الأشتر . وموضوع القصة هو فروسية أبيه . وشجاعته : وصواب رأيه . يقابل ذلك انخداع أهل العراق . وبصفة خاصة « أصحاب الجباه السود » أوائل الخوارج . الذين هم - حسب القصة - سبب الكارثة . التي حلّت بجيش علي . وقد قص إبراهيم هذه القصة على مصعب بن الزبير . والي العراق . لأخيه عبد الله . وكان يجابه من حرب الخوارج أمراً شديداً : إذ إنه - بعد أن نجح في القضاء على المختار . وضمّ الكوفة إلى ولايته - أخذ يركّز اهتمامه على حرب الخوارج . وقد ألحقوا بقوادهم هزائم مريرة . وإبراهيم بن الأشتر كان من أشدّ الناس عداوة للخوارج . وكان يستنهض نائب مصعب على الكوفة . ويقول : « .... أما بعد : فإنه سار إلينا عدوّ ليست له بقية . يقتل الرجل . والمرأة . والمولود . ويخيف السبيل . ويخرب البلاد ... أندب معي الناس حتى أعبر إلى هذه الأكلب . فأجيئك برؤوسهم الساعة »(٩٩) .

وعندما أسند مصعب حرب الخوارج إلى المهلب بن أبي صفرة . ولي إبراهيم بن الأشتر مكانه على الموصل والجزيرة(١٠٠) . ثم قتل معه في المجابهة العسكرية . مع عبد الملك بن مروان(١٠١) .

هذا مصدر القصة وجوها ، إذ إن كلا من مصعب وابن الأشتر يكنان عداءً شديداً للخوارج . وكثرة العبادة و « الجباه السود » من سمات الخوارج .

أما إذا نظرنا إلى القصة ذاتها فنرى أنه يقول :

أولاً : حين أكرهه الناس على الحكومة .

ثانياً : يا أهل العراق ، يا أهل الذل والوهن .

ثالثاً : يا أصحاب الجباه السود .

فهو مرتين يخاطب عامة أهل العراق . ومرة واحدة يخاطب أصحاب الجباه السود . والرواية تجعلهم أشدّ من غيرهم ، إذ كانوا مجمعين على وقف القتال . ولو كانت القصة صحيحة فهل يتمكن الأشتر في عدو الفرس أن يلحق الهزيمة بأهل الشام . ولو أن النصر كان قريباً فلن تقبل قبائل العراق وقف القتال . وعبارة « أمهلوني عدو الفرس » المنسوبة إلى الأشتر الأب مثل عبارة الابن : « أندب معي الناس حتى أعبر إلى هذه الأكلب ، فأجيئك برؤوسهم الساعة » .

وفي اعتقادي أنه إذا لم تكن هذه القصة ملفقة من أساسها ، إذ لا نعرف لها وجها غير رواية إبراهيم بن الأشتر ، وأنها كانت جزءاً من الحملة النفسية ضد الخوارج . فلا بد أنها تعرّضت للكثير من التحريف .

ومما يجعلنا نميل إلى أنها ملفقة ، أن المهلب بن أبي صفرة ، الذي أوكل إليه مصعب بن الزبير – أيضاً – حرب الخوارج كان – كما يقول المبرّد : « ربما صنع الحديث ليشد به من أمر المسلمين ، ويضعف أمر الخوارج »(١٠٢) . وإذا كانت « الأحاديث » تختلق ، في تلك المرحلة المبكرة ، لأغراض سياسية ، فاختلاق القصص والأخبار للهدف نفسه أولى .

والحقيقة أن الفتنة ، التي بدأت بقتل الخليفة عثمان – رضي الله عنه – وانتهت بقتل الخليفة علي – رضي الله عنه – تشكل فصلاً مأساوياً دامياً من تاريخ المسلمين ، إذ انقلب فيها الفاتحون من جبهات الجهاد في فارس والروم ، وتركوا نشر الدعوة الإسلامية ، ليوجّه بعضهم أسلحته إلى صدور بعض . على ضفاف نهر الفرات في « صفين » وتسببت تلك الحرب الأهلية المشؤومة بانقسام الأمة الإسلامية انقساماً خطيراً ، تعيشه حتى يومنا هذا ، وانعكس هذا الانقسام على حياة المسلمين وفكرهم . وكان التاريخ من أكثر الميادين تأثراً به . ولكن هؤلاء هم البشر ، وهذا هو التاريخ سجل أخبارهم . ولله في خلقه شؤون .

الهوامش

١ – سورة العلق : الآيات ١ – ٥
٢ – الواقدي : المغازي ١ : ٣٤٧ وانظر أيضاً ، البخاري : الجامع الصحيح ٥ : ١٣٧ ، الطبري ٢ : ٤٤٥ – ٤٤٧ ، المسعودي : التنبيه والاشراف ص ٢٢٨ .
٣ – الواقدي ١ : ٣٥٤ – ٣٦١ ، المسعودي : التنبيه والاشراف ص ٢٢٨ ، ابن سعد ٣ : ٤٦٢ – ٤٦٣ .
٤ – البلاذري : فتوح البلدان ص ٩٩ ، ابن الأثير ٢ : ٣٦٣ ، ابن كثير ٦ : ٣٢٤ .
٥ – البخاري ٦ : ٣١٤ – ٣١٥ ، ابن الأثير ٣ : ١١٢
٦ – السجستاني : المصاحف ص ١١ – ١٢ .
٧ – ابن شبَّة : تاريخ المدينة ٣ : ٩٩١ ، ابن الأثير ٣ : ١١١ – ١١٢
٨ – سورة آل عمران ، أية ١٦١ .
٩ – ابن شبَّة ٣ : ١٠٠٥ – ١٠٠٦ ، ابن سعد ٢ : ٣٤٣ – ٣٤٤ ، السجستاني ص ١٦ ، الذهبي : سير ١ : ٤٨٨ .
١٠ – ابن سعد ٢ : ٣٤٥ .
١١ — السجستاني ص ١١ — ١٢ .
١٢ – ابن سبَّة ٣ : ٩٩٨ – ٩٩٩ ، السجستاني ص ٣٥ .
١٣ – ابن شبَّه ٣ : ١٠٤٩ – ١٠٥٠ . البلاذري : أنساب ق ٤ جـ ١ ص ٥٢٤ .
١٤ – البلاذري : أنساب ق ٤ جـ ١ ص ٢٣٦ – ٢٣٧ وأنظر أيضاً ص ٣٨٠
١٥ – الطبري ٤ : ٢٧٩ ، ٣١٧ .
١٦ – البلاذري : أنساب ق ٤ جـ١ ص ٥٢٨
١٧ – البلاذري : أنساب ق ٤ جـ ١ ص ٥٢٩ – ٥٣٠ ، ابن شبَّة ٣ : ١١٤٠ – ١١٤١ .
١٨ – ابن شبَّة ٣ : ١١٤٢
١٩ – البلاذري : أنساب ق ٤ جـ ١ ص ٥٢٩ – ٥٣٠
٢٠ – الطبري ٤ : ٣٢٢ – ٣٢٦
٢١ – الطبري ٤ : ٣٢٦
٢٢ – البلاذري : أنساب ق ٤ جـ ١ ص ٥٢٩ – ٥٣٠
٢٣ – ابن شبَّة ٣ : ١١٤٠ – ١١٤١
٢٤ – الطبري ٤ : ٣٢٦
٢٥ – البلاذري : أنساب ق ٤ جـ ١ ص ٥٣٠
٢٦ – ابن شبَّة ٣ : ١١٤٢
٢٧ – الأصبهاني ١٥ : ٢٩٩
٢٨ – الأصبهاني ١٥ : ٢٩١
٢٩ – الطبري ٥ : ٧٤ ، ٧٥ ، ٨٧ .
٣٠ – الطبري ٣ : ٧٦
٣١ – الطبري ٥ : ٤٩ ، ٥١
٣٢ – الطبري ٥ : ٧٥ – ٧٦ ، ٨٧

٣٣ – نصر بن مزاحم المنقري : « وقعة صفين » ص ١١٥ . أخبار صفين ص ٨٧ – ٨٨ . الدينوري : الأخبار الطوال ص ١٦٥ .
٣٤ – نصر بن مزاحم ص ٨٨ . أخبار صفين ص ٢٠١ - ٢٠٢ . وانظر – أيضاً – الدينوري ص ١٦٩ .
٣٥ – الطبري ٤ : ٣٢٧ – ٣٢٨ . ابن سعد ٥ : ٤٧ .
٣٦ – نصر بن مزاحم ص ٢٨٧ ، ٥٠٩ . أخبار صفين ص ٤٤٧ . الذهبي : سير ٤ : ٥٣ – ٦١ .
٣٧ – نصر بن مزاحم ص ٢٠٥ – ٢١٣ . أخبار صفين ص ١٥٤ – ١٥٦ . ١٦٧ – ١٦٨ . ٢٣١ - ٢٥٠ . الدينوري ١٧١ – ١٧٣ .
٣٨ – الطبري ٥ : ١١، نصر بن مزاحم ص ٢٠٨
٣٩ – الطبري ٥ : ١٥ ، أخبار صفين ص ٢٦٧ .
٤٠ – الطبري ٥ : ٣٤ . نصر بن مزاحم ص ٢٩٢ – ٢٩٣ .
٤١ – الطبري ٥ : ١٨ . نصر بن مزاحم ص ٢٤٦ ، قارن الدينوري ص ١٧٥ – ١٧٦ وليس فيه ذكر للقرّاء .
٤٢ – الطبري ٥ : ٤٣ – ٤٤ . نصر بن مزاحم ص ٣٥٤ – ٣٥٥ .
٤٣ – الطبري ٥ : ٢٧ ، نصر بن مزاحم ص ٢٦٣
٤٤ – الطبري ٥ : ٤٧ ، نصر بن مزاحم ص ٤٧٥ .
٤٥ – الدينوري ص ١٧٨ .
٤٦ – الدينوري ص ١٨١ .
٤٧ – الدينوري ص ١٤٦ – ١٤٧ .
٤٨ – الطبري ٥ : ٤٨ – ٤٩ .
٤٩ – نصر بن مزاحم ص ٤٧٨ – ٤٧٩ (عن تميم بن حذيم ؛ وهو من المشاركين في الحرب) .
٥٠ – نصر بن مزاحم ص ٤٨٢ – ٤٨٥ (عن صعصعة بن صوحان العبدي ؛ وهو من المشاركين في الحرب) .
٥١ – نصر بن مزاحم ص ٤٨٩ – ٤٩٠ .
٥٢ – نصر بن مزاحم ص ٤٩٩
٥٣ – الطبري ٥ : ٥١ ، نصر بن مزاحم ص ٤٩٩
٥٤ – نصر بن مزاحم ص ٤٩٧ (عن شقيق بن سلمة ؛ وهو من المشتركين في الحرب) وأنظر – أيضاً – كتاب الإمامة والسياسة ١ : ١١١ .
٥٥ – أخبار صفين ٣٩٤ – ٣٩٦ ، ٤٠١ – ٤١٥ . ٤٧٢ - ٤٧٣
٥٦ – أخبار صفين ٥٢٢ – ٥٢٤
٥٧ – ابن أعثم الكوفي : **وقعة صفين مخطوطة** « أنقرة : صائب رقم ٥٤١٨ » **لوحة ١٠١** أ .
٥٨ – ابن أعثم الكوفي لوحة ١١٠ أ .
٥٩ – خليفة بن خياط : تاريخ خليفة بن خياط ص ١٩٢ – ١٩٧
٦٠ – الدينوري ص ١٩١
٦١ – اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ٢ : ١٨٨ – ١٨٩
٦٢ – المسعودي : مروج الذهب ٢ : ٣٩٠
٦٣ – المسعودي : مروج الذهب ٢ : ٣٩٥

٦٤ – ابن الأثير : ٣ : ٢٦٣ ، ابن كثير : ٧ : ٢٧٥ ابن خلدون : التاريخ ٤ : ١٠٩٠
٦٥ – ابن كثير ٧ : ٣٠٦
٦٦ – ابن كثير ٧ : ٢٧١
٦٧ – فلهوزن : أحزاب المعارضة السياسية الدينية : الخوارج والشيعة ص ٢٥
٦٨ – فلهوزن ص ٢٧ – ٣١
٦٩ – فلهوزن ص ٣٢

70. Shaban, M.A., Islamic History, pp. 49-51

71. Hinds, M., Kufan Political Alignments, pp. 358-359.

٧٢ – نصر بن مزاحم ص ٩٩ .
٧٣ – نصر بن مزاحم ص ١٨٧ ، أخبار صفين ص ٢٢٢
٧٤ – نصر بن مزاحم ص ٢٠٥ ، أخبار صفين ١٦٨ ، الدينوري ص ١٧٢ .
٧٥ – الذهبي : سير ٤ : ١٥٠
٧٦ – أخبار صفين ص ٢٣٧
٧٧ – أخبار صفين ص ١٦٨
٧٨ – الطبري ٥ : ٧٦
٧٩ – فلهوزن ص ٣٥ وابن مسعود مات فى المدينة سنة ٣٢هـ أي قبل معركة صفين بخمس سنوات .
٨٠ – معروف ، نايف محمود : الخوارج فى العصر الأموي ص ٣١ – ٣٢
٨١ – أخبار صفين ص ٣٩٤ ، ابن أعثم « وقعة صفين » لوحة ١٠١ أ ، الإمامة والسياسة ١ : ١١١ .
٨٢ – المسعودي : مروج ٢ : ٣٩٣
٨٣ – الدينوري : ص ١٥٦ ، نصر بن مزاحم ص ٢٠ – ٢١ ، أخبار صفين ص ٢٠ .
٨٤ – نصر بن مزاحم ص ٢١ ، أخبار صفين ص ٢١ .
٨٥ – نصر بن مزاحم ص ١٣٧ – ١٤٠ ، أخبار صفين ص ١٦٠ – ١٦٣ .
٨٦ – الطبري ٤ : ٤٨٠ ، ٨١ ، ٤٨٢ – ٤٨٣ ، الدينوري ص ١٤٤ – ١٤٥
٨٧ – الطبري ٤ : ٣٣٢ ، البلاذري : أنساب ق ٤ جـ ١ ص ٥٣٥ – ٥٣٦
٨٨ – الطبري ٤ : ٤٤٢ – ٤٩٩ ، اليعقوبي ٢ : ١٧٩
٨٩ – الطبري ٥ : ٥٢ ، ٥٣ ، نصر بن مزاحم ص ٥٠٨ ، ٥١٠ ، أخبار صفين ص ٤٧٢ اليعقوبي ٢ : ١٨٩ .
٩٠ – نصر بن مزاحم ص ٥٠٠ ، أخبار صفين ص ٤٧٥
٩١ – الدوري : مقدمة فى تاريخ صدر الإسلام ص ٥٩
٩٢ – الجوهري : الصحاح ٣ : ٩٩٩ – ١٠٠٠
٩٣ – الجوهري : ٦ : ٢٤٥٧
٩٤ – الجوهري : ٤ : ١٤٢٧
٩٥ – ابن خلدون : المقدمة ٢ : ١٠٤٨
٩٦ – أحمد أمين : فجر الإسلام ص ٢٥٦
٩٧ – الدوري ص ٥٩

٩٨ – الطبري ٥ : ٤٩ – ٥٠ ، نصر بن مزاحم ص ٤٩٠
٩٩ – الطبري ٦ : ١٢٣ ، ١٢٤
١٠٠ – الطبري ٦ : ١٢٧
١٠١ – الطبري ٦ : ٢٥٨
١٠٢ – المبرّد : « باب الخوارج » ص ١٤٠ (نشر مستلا من كتاب الكامل فى الأدب واللغة) .

المصادر والمراجع

١ – القرآن الكريم

٢ – أخبار صفين لمؤلف مجهول (مخطوطة المبروزيانا H 129 ، ومخطوطة برلين Q.U. 2040 حققها عبد العزيز الهلابي على أنها جزء من رسالة الدكتوراه وقدمها لجامعة St. Andrews Univ. في أبريل ١٩٧٤م ولم تنشر بعد .

ابن الأثير ، عز الدين أبو الحسن . علي بن أبي الكرم
٣ – الكامل في التاريخ .
دار صادر . دار بيروت . بيروت ١٩٨٥ – ١٩٦٥م

الأصبهاني . أبو الفرج علي بن الحسين
٤ – كتاب الأغاني
دار الثقافة . بيروت . الطبعة الخامسة ١٤٠١هـ – ١٩٨١م

ابن أعثم ، محمد بن أحمد
٥ – وقعة صفين
مخطوطة (أنقرة . صايب ٥٤١٨) .

٦ – الإمامة والسياسة
منسوب لابن قتيبة . محمد بن عبد الله بن مسلم
تحقيق : الدكتور طه محمد الزيني
مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع .

أمين ، أحمد
٧ – فجر الإسلام
دار الكتاب اللبناني . بيروت . الطبعة العاشرة ١٩٦٩م

٨ – البخاري ، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل
صحيح البخاري
عالم الكتب ، بيروت . الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م

البلاذري ، أحمد بن يحيى

٩ – أنساب الأشراف ، القسم الرابع ، الجزء الأول
تحقيق : الدكتور إحسان عباس
الناشر : فرانس شتايز يفيسبادن
بيروت ١٤٠٠هـ – ١٩٧٩ م

١٠ – فتوح البلـــدان
راجعه رضوان محمد رضوان
دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م

الجوهري ، إسماعيل بن حماد
١١ – الصحاح : تاج اللغة وصحاح العربية
تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار
طبع على نفقة المحسن حسن عباس الشربتلي .

ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد
١٢ – كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر
دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة ، بيروت ١٩٨٢ م .

١٣ – مقدمة ابن خلدون
تحقيق : الدكتور علي عبد الواحد وافي
دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠١هـ

خليفة بن خيـــاط
١٤ – تاريخ خليفة بن خيـــاط
تحقيق الكتور أكرم ضياء العمري
مؤسسة الرسالة ودار القلم ، بيروت ودمشق ، الطبعة الثانية ١٣٩٧هـ – ١٩٧٧م .

الدوري ، عبد العزيز
١٥ – مقدمة فى تاريخ صدر الإسلام
المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٠م

الدينوري ، أبو حنيفة أحمد بن داود
١٦ – كتاب الأخبار الطوال
تحقيق : عبد المنعم عامر

أعادت طبعه – بالأوفست – مكتبة المثنى ببغداد .

الذهبي ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان
١٧ – سير أعلام النبلاء
تحقيق : شعيب الأرناؤوط وحسين الأسد
مؤسسة الرسالة . بيروت . ١٤٠١ – ١٤٠٢هـ . ١٩٨١ – ١٩٨٢م .

السجستاني . أبو بكر عبد الله بن أبي داود
١٨ – كتاب المصاحف
صححه ووقف عليه : الدكتور آرثر جفري
المطبعة الرحمانية بمصر . الطبعة الأولى ١٩٣٦ – ١٣٥٥

ابن سعد . محمد بن سعد بن منيع البصري
١٩ – الطبقات الكبرى
دار صادر . بيروت . (تاريخ الطبع ؟)

ابن شبَّة . أبو زيد عمر بن شبَّة النميري البصري
٢٠ – كتاب تاريخ المدينة
تحقيق : فهيم محمد شلتوت
نشر على نفقة السيد حبيب محمود أحمد . دار الأصفهاني للطباعة بجدة

الطبري . أبو جعفر محمد بن جرير
٢١ – تاريخ الرسل والملوك
تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم
دار المعارف ، مصر ، الطبعة الرابعة . (تاريخ الطبع ؟) .

فلهوزن ، يوليوس
٢٢ – أحزاب المعارضة السياسية الدينية فى صدر الإسلام : الخوارج والشيعة .
ترجمه عن الألمانية : الدكتور عبد الرحمن بدوي
وكالة المطبوعات ، الكويت ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٦ م

ابن كثير ، أبو الفداء إسماعيل بن عمر
٢٣ – البداية والنهاية

مكتبة المعارف ، بيروت ، الطبعة الرابعة ، ١٩٨١م – ١٤٠١هـ

المبرّد ، أبو العباس محمد بن يزيد
٢٤ – باب الخوارج (نسخة مستلة من كتاب المبرّد : الكامل في اللغة والأدب)
منشورات دار الحكمة ، دمشق ، (تاريخ الطبع ؟)

المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين

٢٥ – التنبيه والاشراف
دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، ١٩٨١ م

٢٦ – مروج الذهب ومعادن الجوهر
دار الأندلس ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨٥هـ – ١٩٦٥ م.

معروف ، نايف محمود
٢٧ – الخوارج في العصر الأموي
دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٧٧م–١٣٩٧هـ

نصر بن مزاحم المنقري
٢٨ – وقعـة صفين
تحقيق : عبد السلام هارون
الناشر : المؤسسة العربية الحديثة ، ومكتبة الخانجي ، مصر ، الطبعة الثالثة
١٤٠١هـ – ١٩٨١ م .

الواقدي ، محمد بن عمر
٢٩ – كتاب المغازي
تحقيق : الدكتور مارسدن جونز
عالم الكتب ، بيروت ١٩٦٦ م

اليعقوبي ، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر
٣٠ – تاريخ اليعقوبي
دار بيروت للنشر ، بيروت ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م .

31. Hinds, Martin, Kufan Political Alignments, Int. of Middle East Stud. 2 (1971), 346-367.

32. Shaban, M.A., Islamic History, Cambridge University Press, 1971.

THE ATTRIBUTED ROLE
OF THE QURRA
AT THE BATTLE OF SIFFIN

DR. ABDUL AZIZ SALEH AL-HELABI *

ABSTRACT :

Most early Muslim historical sources report that the *Qurra,* in 'Alis's camp at the Battle of Siffin (37 A.H./657 A.D.), had compelled 'Ali to accept arbitration, when the Syrians raised the *Masahif.* And when 'Ali complied with their demand, they left his army in protest against his acceptance of the arbitration.

Most modern scholars base their research on the conflict at Siffin on these reports.

This paper has followed up the development of the concept of "*the Qurra*" from the Prophet's time down to the incident of the arbitration at the Battle of Siffin. It has examined the early historians and has quoted the points of view of some modern scholars in regard to the subject.

The paper has concluded that the reports of the early historians were fabricated and consequently the role of "the Qurra" in the fighting and in the arbitration was imaginary.

* *Assistant Professor*
Faculty of Arts
Department of History
King Saud University
Riyadh - Saudi Arabia